ريتسوس إلى أثينا سنة 1925 لإكمال دراسته. فتى في السادسة عشرة، مثقلٌ بحاضر قاس. إنها الأزمنة العصيبة: دمار آسيا الصغرى وتدفق ملايين اللاجئين ليشكلوا حِزاماً من البؤس والفقر يطوق العاصمة. عاش ريتسوس ألوان القهر والمذلة والاستغلال في مدينة لا ترحم. وفي شتاء 1929، يتلقى الضربة الاولى. يدركه مرض السلّ الذي اختطف شقيقه ووالدته، ويظل فترة طويلة من رواد المصحات. عتمة حالكة تلف أعوام الصبا، وقائمة من الانكسارات الذاتية، غير أن الشعر يأتي كفعل للخلاص، وتوازن دقيق يقيم جداره أمام زحف اليأس. بعد أيام من صدور مجموعة «أغنية أختي» سنة 1937، كتب كوستيس بالاماس، أحد أهم أعمدة الشعر اليوناني الحديث، اعترافاً بالارتجافة الجديدة التي مسّت الشعر اليوناني: «نتنحى جانباً، كي تمر أنت، أيها الشاعر». أعوام الرعب تزحف إلى مفاصل الحياة اليونانية: الاحتلال الألماني، مجاعة شتاء 41 ـ 1942. أمضى ريتسوس تلك الأعوام محطماً تحت وطأة المرض، مقيماً في غرفة تحت الأرض في حي شعبي في أثينا. يتعرض للاعتقال، ويساق إلى معسكرات الاحتجاز في مسلسل طويل من الرعب والتعذيب. في 1956، ينال الاعتراف بحصول مجموعته «سوناتا ضوء القمر» على الجائزة الهيلينية الوطنية الكبرى. وفي العام التالي، تنشر ترجمتها الفرنسية في مجلة «الآداب الفرنسية»، مع تقديم حماسي من أراغون (عدد 28 فبراير ـ 6 مارس 1957): «إنه من بين أكبر شعراء هذا العصر وأكثرهم تفرّداً. مضى زمن طويل لم يهزني فيه شيء كما هزني هذا الشعر الصادم بعبقريته... من أين يجيء هذا الإحساس بالرعشة في الشعر؟ حيث الأشياء ذاتها تؤدي دور الأشباح. في هذا الشعر، ثمة صدى يونان ليست هي بيونان بايرون ودولاكروا، وإنما هي يونان الشقيقة التوأم لصقلية بيرانديللو وغريكو، حيث الجمال ليس هو جمال الرخام المشوّه أبداً، وإنما هو جمال الإنسانية الممزقة وانحطاط عصر».

تطلق السلطات سراحه مجبرةً إثر حملة تضامن بتحريض من أراغون وأشهر المثقفين والمنظمات الفنية. تضع أعوام العذاب خاتمتها الأولى. أربعة عقود متواصلة من الحرمان والويلات والتنقل بين المعتقلات في ظل أنظمة تقف بالضد من كلّ أشكال الإبداع والفكر.
رشح ريتسوس مراراً لجائزة «نوبل» لكنه لم ينلها، بسبب انتمائه اليساري في أزمنة الاستقطاب السياسي والفكري الحاد. حين نالها التشيلي بابلو نيرودا عام 1971، قال: «أعلم تماماً أنّ ذلك الإغريقي يستحقها أكثر مني». في ليلة خريفية باردة، تنحى ريتسوس عن دوران الأيام اللاهث. رحل وهو نائم، كأنما امتزج الموت بالنوم، أو الحلم بالموت رافعاً المزلاج ليفتح بوابة إحدى قصائده ويمضي في دهاليز الشعر. ترك أكثر من 100 مجموعة، إضافة إلى إصدارات في الترجمة والمسرح والرواية والدراسات وأدب الرحلات، وكتاب خاص ضمّ رسومه وتخطيطاته وأعمال الحفر على الحجر.

يك المهملة

■■■

نسيتِ المظلة
في القطار
كنتِ تفكرين فيّ إذن
شعركِ المبلل
سرحته
ووضعت المشط
تحت القصيدة

■■■

حين ترخين ذراعكِ
على ركبتي أو كتفي
أو حول خصري
يغيّر الكون موقعه

■■■

صباحاً، أنا أكثر أرهاقاً منكِ، ربما أكثر سعادة أيضاً، تستيقظين بلا جلبة، ضجة خافتة لملاءات السرير، تمضين حافية القدمين، فيما أواصل النوم في الدفء الذي خلفه جسدكِ العاري، أنام موغلاً في جسدكِ، غارقاً في عتمة ناصعة البياض، أسمعكِ تغتسلين، تعدين القهوة، تنتظرين أسمعكِ تقفين فوقي، حائرة، ابتسامتك تخترق جسدي كله تطري أظفاري
أرقد، أشرعة بيضاء تومض ساكنة، غطاء أحمر يتدلى فوق حبل الغسيل، الأحمر يثقل جفوني

■■■

نقطع قصباً، نقيم كوخاً ذهبياً. بمشقة تعتلين السقف، بكلتا يدي أقبض على كاحليكِ. لا تهبطين، تحلقين.. تحلقين في الزرقة، تسحبينني معكِ، أقبض على كاحليكِ، من كتفكِ، تسقط المنشفة الزرقاء الكبيرة في الماء، تطفو لبرهة ثم تغرق تاركة على صفحة الماء نجمة خماسية ترتعش.
لا تذهبي أبعد، صرخت، ليس بعيداً وفجأة نستلقي بارتطام ساكن، على السرير الخرافيّ. انصتي في أسفل الشارع، يمر المضربون بلافتاتهم وأعلامهم، ألا تسمعين؟ تأخرنا. اجلبي معكِ أيضاً منديلكِ الذي ترقصين به... لنذهب. شكراً يا حبيبتي

* من مجموعة «إيروتيكا» (1981)

متأخراً... متأخراً جداً في منتصف الليل *

ضيق الوقت

ليس لدي - قال - وقت، لا وقت لديّ
أشجار، منازل، جبال، طيور، أنهار،
أضواء، فراشة شقراء،
نافذة مغطاة بستارة صغيرة بيضاء،
فرس حزينة على جسر خشبيّ،
صبيّ بان الذهول على رموش عينيه،
كل هذا يومئ لي للحظة
ثم يتركني في منتهى الوحدة
أعمى، أصم
على حافة العالم.

بحث عقيم

امرأة جميلة بشعر كثيب وأساور خفية
ترقد الآن في الغرفة العليا.
لا تعلم بشكوكنا القديمة (رغم اعترافنا أحياناً)
حتى مع نسياننا الحالي.
سأنزل إلى القبو،
سأوقد شمعة وأبحث عن شيء
لأحتفظ بأسرار زمني
تالياً سأصعد لأحاول إيقاظ المرأة
تلك بالشعر الكئيب.
الشمعة لن تنطفئ.

ليس تماماً

امرأتان (ربما أم وابنتها) بوشاح أسود
عبر الباب المفتوح، يمكن رؤيتهما
تجلسان قرب بعضهما على كنبة قديمة.
لا تتحركان البتة، لا تتكلمان.
قطعة كبيرة من الخبز ممددة أمامهما على الطاولة.
القطة على الكرسيّ.
خارجاً، البحر يلمع، الزيزان تصدر أصواتاً،
أسراب السنونو تدوّن شيئاً على الهواء
شيئاً ما انتهى
ولكن في الوقت الذي كنت متهيئاً للكشف عن مشاعري
نهضت العجوز وأغلقت الباب.

عمود

أحجار وأشواك وزيزان.
جفاف ممتد.
الآبار والجداول جفت.
الطيور هاجرت.
أشجار الزيتون ما زالت متشبثة بالقليل من الخضرة
والبحر يومض.
في مكان ما تظهر سفينة في الأفق.
لم تتوقف.
الأطفال والعجائز ماتوا.
الشراشف تخدش.
عمود واحد ينتصب لامع طوال النهار والليل.
ثناسيس قال:
«سأعلتيه، وسأصرخ بالرب أن يمطر».
اعتلاه. صرخ. ولم تمطر.
ثناسيس سقط من العمود ودفن في اليوم التالي.

الخوف الآخر

قاوموا بثبات المخاوف القديمة. لم يحنوا رؤوسهم.
تعذيب، مناف، سجون.
وبانتظار تنفيذ إعدامه، يورغيس ترك رسالة لأمه: «لا تبكي.
فأنا أموت واقفاً. ولا تنسي أن تبلغي الجبال تحياتي، والطيور، والأشجار».

اليكسيس رسم منجلاً ومطرقة على جدار زنزانته
وتحتهما وضع اسمه.
الآخرون غنوا ورقصوا أمام فوهات البنادق.
قاوموا بثبات المخاوف القديمة.
لكنّ هذا الخوف صامتٌ حتى دون أن يتنفس،
خصم غير مرئيّ،
لا يشتمك، لا يضربك بهراوة،
لا يشهر مسدساً.
غير مرئيّ. ينتظر.. فقط.
إذن.. يجب أن تجهزوا ملابس اليوم الأخير،
في هدوء وكبرياء، أحذية سوداء..
جوارب سوداء،
بذلة سوداء.. وقرنفلة حمراء في الصدر
في ذكرى تلك الأيام.. والمخاوف المهزومة.

طاولة عمل

ها هي الطاولة التي دوّنتَ عليها أشعارك يومياً -
مزقها الرصاص، ونخرتها الديدان.
ليلاً غالباً ما تهب الرياح،
تصفر مثل ناي حين تمر عبر الثقوب،
في منتصف الليل تأتي العمة اورانيا*
وتضع على الطاولة حقيبتها البيضاء،
قفازها الأبيض، أساورها الخمس،
وتتمدد بجانبك. فيما تتظاهر أنت بالنوم،
من يعلم، ربما كنت نائماً حقاً.

*إحدى آلهة الإلهام التسع والمعنية بالعلوم الفلكية في الأساطير الإغريقية

هبوط العتمة

ألغي حفل هذا المساء.
ما عرفنا أبداً
من يرثون، وبم يحتفلون؟
فجأة اطفأوا الأنوار وغادروا.
من النافذة رأينا الموسيقيين
يجتازون الطريق بصمت
وعلى أكتافهم
آلات نحاسية كبيرة.
امكث هنا، إذن،
دخن سيجارتك
وسط هذا الهدوء العظيم،
وسط هذه المعجزة - لا شيء.
صماء هي التماثيل.
صماء هي القصائد.
العتمة حلّت.

ثلج

حاصرنا البرد.
عصافير جامدة على حواف النوافذ،
تحدق بعيون حزينة صغيرة داخل المنزل.
تنقر على الزجاج. ليس من يجيب.
جمعَ صغار الباعة سلالهم في الطريق.
ألغيت رحلات السفن.
حان وقت هبوط الثلج الأبيض الكثيف.
مفتاح القبو نسي عند قاعدة تمثال الفارس.

رد سريع

بين الشوك البريّ
زهرة صفراء ذهبية صغيرة
قال: ما الذي يجب فعله؟
أجبتَ: أجل
وكانت الشمس.

سلّم

هذا السلَم للشرفات الكبيرة،
للأشجار الباسقة،
تلك التي تسلقتها العجائز السبع
ونزعن أجنحة مخبأة تحت ثيابهن
في زمن أعمى، عار وأجوف،
زمن ممتد،
ملقى على الأرض
تخنقه الأحراش رويداً.. رويداً.
يغدو تراباً،
يغدو عشباً،
ليكون وليمة للنمل والدود.

دون وجه حق

وجوه متعبة، أيدٍ متعبة.
ذاكرة متعبة.
وهذه العزلة فقدت السمع.
الليل حلّ.
الأولاد كبروا، ذهبوا بعيداً.
الرسائل لم تعد تنتظرها.
وبعد ذلك
لا ترغب أن تسأل. دون وجه حق،
كل تلك السنوات التي تعذبت فيها
محاولاً أن تختم بالشمع على القناع الورقيّ
ابتسامة رضىً.
أغمض عينيك.

براءة

محل الزهور، بائع الفاكهة، البقال،
المخبز،
الجزار أبعد قليلاً،
تمر امرأة حاملة رأس خس ضخم،
راقبها الشرطيّ،
وأنا كيف لي أن استعرض براءتي،
ليلاً تأتي مبكراً وعلى عجل لإخفائي،
النجوم تحول انتباهنا بلباقة.
وأنا كان كل حلمي
ورقة وحيدة مستحيلة
من ذلك الخس الضخم لدى المرأة الحزينة.

المركب الأسود

وحيداً في الليل، يجلس العجوز عند عتبة الدار.
حاملاً في يده تفاحة.
الآخرون أودعوا حياتهم في ذمة النجوم.
بماذا ستخبرهم؟ الليل هو ذاته.
لا نعلم ما سيأتي بعد.
القمر يتظاهر بأنه يتسلى،
يواصل إطلاق وميضه في البحر.
في وسط هذا السطوع
يمكنك رؤية المركب الأسود ببحّاره المجهول
وهو يجذف بهدوء لينأى بعيداً.

* من مجموعة «متأخراً.. متأخراً جداً في منتصف الليل» (1991)